شاكر النابلسي *

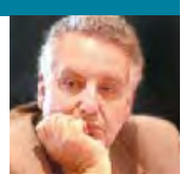

«حماس»... إلى أين وإلى متى؟

مازالت «حماس» إلى الآن موقنة بأن إقامة الدولة الفلسطينية لن تتأتى إلا بقوة السلاح، وإقامة انتفاضة مسلحة ثالثة على غرار الانتفاضة الثانية، فإلى أين تقودنا «حماس»؟ وإلى متى تبقى كرة الثلج الفلسطينية في مواجهة وهج النار الإسرائيلية، تذوب كل يوم، لتختفي كلية في النهاية، ونفتش عن فلسطين في الخريطة فلا نجد لها أثراً؟

- 1 -

لا أحد ينكر أن القضية الفلسطينية في هذه الأيام أصبحت فتاتاً متناثراً، أو كوماً من القش تذروه الرياح، وأن زيارة الرئيس بوش إلى المنطقة والوساطة السعودية-المصرية لن تجدي نفعاً، فكيف «يصلح العطار ما أفسده الدهر»، مادام الداخل الفلسطيني على هذه الدرجة من الشقاق والانغلاق؟

الشقاق بينهم ليس على مستوى «فتح»، و«حماس» فقط، وليس على مستوى التيار العلماني في منظمة التحرير الفلسطينية، والتيار الديني السلفي، ولكنه على مستوى الأفراد والجماعات والتنظيمات الثقافية والسياسية الصغيرة. والانغلاق على العالم من حول الفلسطينيين وعدم إدراك وفهم ما يجري في هذا العالم من حولهم، ففي الوقت الذي تنادي فيه «حماس» بقيام دولة دينية كصدى لما تنادي به جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وفي الوقت الذي يهدد فيه خالد مشعل من دمشق بالقيام بانتفاضة ثالثة على غرار الانتفاضة الثانية، وفي الوقت الذي تزداد فيه هجمات صواريخ القسام على المدنيين الإسرائيليين، يقف الرأي العام الإسرائيلي نتيجة لذلك، وتخضع لهذا الرأي الحكومة الإسرائيلية خضوعاً تاماً، وترضخ لإرادته وقراره، موقفاً سلبياً من إجراء أي سلام مع الفلسطينيين وبالتالي مع العرب الذين هم أحوج إلى السلام من الإسرائيليين.

فإسرائيل منذ عام 1948 وهي تعيش وتكبر وتبني وتتوسع بسلام العالم معها، ومن دون سلام العرب، ونعتقد أنها قادرة بسلام العالم، على أن تعيش نصف قرن آخر، تبني وتكبر وتتوسع، والفلسطينيون ومعهم العرب ينظرون ويراقبون، ولا يحصدون في المساء غير الحسرة والألم.

- 2 -

لم يدرك العرب بعد والفلسطينيون معهم، أن مفتاح حل القضية الفلسطينية لم يكن في جيوب السّياسيين الإسّرائيليين منذ تأسيس دولتهم عام 1948 ومنذ عهد بن غوريون إلى الآن، ولكنه في جيب الرأي العام الإسرائيلي في دولة ذات مؤسسات دستورية ديموقراطية ورأي عام فعال ومؤثر في صناعة القرار الإسرائيلي، شئنا أم أبينا. وأن أفعالنا ونيّاتنا كعرب وفلسطينيين عليها أن تقنع أولا الرأي العام الإسرائيلي. وقد نبهنا قبل أيام الكاتب الأميركي نورمان فنكلستين مؤلف كتاب «صناعة الهولوكوست»، في لقائه مع جريدة «الأخبار» اللبنانية، إلى أن «هناك 20% من الإسرائيليين، ممن يمكن أن يكونوا إلى جانبك إذا أقنعتهم بالحجّة المناسبة (زوال الاحتلال والسلام)، و20% آخرين هم كالفاشيين ممن لا يجدي إقناعهم لأنهم لا يتغيّرون. والبقيّة، أي الـ 60% يلحقون مصالحهم في السلام. فالتحدي الأكبر كيف تقنع هذه الفئة بأن من مصلحتها زوال الاحتلال».

فالساسة الإسرائيليون من مصلحتهم ألا يقتنع الرأي العام الإسرائيلي بالسلام العربي-الفلسطيني. وكنا ومازلنا نرى حكومات ليكود، منذ عهد إسحق شامير تفرُّ من السلام فرار السليم من الأجرب، وشجّعت دائماً قولا وفعلا معسكر التطرف الفلسطيني والعربي (يقال إنّ إسرائيل شجّعت قيام «حماس» لتتصدى لمنظمة التحرير الفلسطينية)، لتتخذه ذريعة لتحميل الفلسطينيين والعرب، أمام محكمة الرأي العام الإسرائيلي والعالمي، مسؤولية رفض السلام، لكي يستمر الاحتلال إلى ما شاء الله.

- 3 -

قبل أيام وقف خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لـ«حماس» في دمشق وهدد بقيام انتفاضة ثالثة شبيهة بالتي قامت عام 2000، وكانت كارثة عظمى على القضية الفلسطينية أمام الرأي العام العالمي وأمام الرأي العام الإسرائيلي، بدلا من أن يقدم حلا سياسياً عقلانياً وواقعياً، وذلك بإعادة هيكلة مفهوم الانتفاضة جذرياً، وتحويلها إلى «كوماندوسات» ومسيرات سلمية لتوزيع المناشير على الإسرائيليين جنوداً ومدنيين. وقيام حركة «حماس» بالتحالف مع بقايا «حركة السلام الآن»، والاتجاهات السياسية الإسرائيلية التي تريد دولة ديموقراطية من الطراز الغربي، متصالحة مع محيطها الفلسطيني والعربي، من أجل إنضاج حل سلمي مقبول.

كان على «حماس» بالذات، أن تعلم مسار التاريخ الجديد للقضية الفلسطينية، وتدرك حقيقتها بعد أكثر من نصف قرن من التيه، والضياع، والخسائر المتتابعة، وهي الحقيقة التي لم نستطع أن ندركها، إلا بعد أن تولت القيادة الفلسطينية برئاسة محمود عباس زمام الأمور، وجنحت إلى الواقعية السياسية المريرة على قلب جميع العرب، والتي عبّر عنها محمود عباس في لقائه مع شارون في القدس 2005/6/23، وقال له بالحرف الواحد: «نحن ضعفاء، وفقراء، وبحاجة إلى مساعدتكم. يجب أن تفهم أنه ليس لدينا عصا سحرية. أنت فقط من تستطيع مساعدتي ومنحي فرصة للنجاح. وكل رصاصة أو قذيفة هاون تطلق عليكم، هي ضدي كذلك. أقدر شجاعة الشعب في إسرائيل وهو يسير نحو فك الارتباط. افهموا أن ليست لدينا عصا سحرية، أنتم فقط يمكنكم أن تساعدوني وتعطوني أملا بالنصر». (جريدة «القدس العربي» 2005/6/23).

وهذه هي حقيقة واقع الشعب الفلسطيني بعيداً عن الشعارات الجوفاء، والخطابات العصماء، وهذا هو ملخص الخطاب السياسي العقلاني الواقعي الفلسطيني، ولعل هذا الخطاب كان أشجع خطاب سياسي واقعي فلسطيني قيل حتى الآن، من قبل أعلى مسؤول فلسطيني، ومن قبل قائد فلسطيني اتصف بالشجاعة السياسية الواقعية، ودفع ثمنها في الماضي غالياً (تمت إقالته من منصب رئيس الوزراء في 9/7/ 2003) ويدفع ثمنها غالياً الآن كذلك. وكعادة الإعلام العربي المولع بسفك الدماء، وبعدم قراءة الواقع السياسي الفلسطيني قراءة تاريخية واعية، بعيداً عن العواطف والغرائز والتشنجات، قامت الحمية الإعلامية العربية، بتهييج الشارع العربي والشارع الفلسطيني على القيادة الفلسطينية لموقفها «المتخاذل»، «المستسلم»، «الضعيف»، و«الخائب».

- 4 -

ولكن مازالت «حماس» إلى الآن موقنة بأن إقامة الدولة الفلسطينية لن تتأتى إلا بقوة السلاح، وإقامة انتفاضة مسلحة ثالثة على غرار الانتفاضة الثانية التي يقول عنها أكثر المثقفين الأميركيين المتعاطفين مع القضية الفلسطينية نورمان فنكلستين: «أعتقد أن الاستراتيجية التي اتبعتها «حماس» على سبيل المثال، في استهداف المدنيين والعسكريين الإسرائيليين بأعمال إرهابية لن تجدي في إقناع هؤلاء بأن من مصلحتهم زوال الاحتلال ومفاعيله، بل هي برأيي تؤدي إلى نتائج عكسيّة تماماً. فعندما يشعر الإسرائيليون، بأنهم جميعاً مستهدفون من دون تمييز بين مدنيين وعسكريين، فلن نتمكن من استمالة الفئة الأوسع منهم نحو السلام وإنهاء الاحتلال.

وهنا أعتقد أن الانتفاضة الثانية 2000 أضرّت بالقضية أكثر بكثير مما أفادتها، لأنها همشت 95% من الفلسطينيين، وحرمتهم من المشاركة الشعبيّة في النضال، على عكس ما كان الوضع عليه في الانتفاضة الأولى 1987. والأجدر تسمية الانتفاضة الثانية بـ«الفرجة العامة»، حيث وقف 95% من الفلسطينيين متفرجين على 5% فقط من عناصر الكفاح الديني المسلّح».

ورغم ذلك، مازالت «حماس» -على لسان خالد مشعل- تفكر في إشعال انتفاضة مسلحة ثالثة، فإلى أين تقودنا «حماس»؟ وإلى متى تبقى كرة الثلج الفلسطينية في مواجهة وهج النار الإسرائيلية، تذوب كل يوم، لتختفي كلية في النهاية، ونفتش عن فلسطين في الخريطة فلا نجدَ لها أثراً؟

* كاتب أردني

د. مأمون فندي *

المحلل والمخلل

كيف لكل هذه العناكب أن تعشش في رؤوس من استثمرنا في تعليمهم وأرسلناهم إلى كبريات الجامعات وكنا نطمح أن يأخذوا بيدنا؟

ما نراه في إعلامنا العربي اليوم من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، هو اتساع في مساحات الجهل، وانتشار أوسع للأفكار القديمة ذاتها، مرة تأتي معلبة بغلاف إسلامي ومرة بغلاف قومي أو وطني، لكنها المقولات المعلبة ذاتها التي نفدت صلاحيتها.

عندما تشاهد قنوات الـ «بي بي سي» التلفزيونية، تحس كأن المذيع (أو المذيعة) غير موجود، مجرد شخص شفاف تمر من خلاله المعلومات. أما في تلفزيوناتنا العربية فتحس أن المذيع يقف حائلا بينك وبين المعلومة. يفرد يديه كما جناحي طائر على الطاولة التي يستند إليها، ويغلظ صوته مرة ويهدجه مرات، يتمطط كثيراً، حتى لتظن أن هذه الأخبار من صنيعته. الأخبار هي الأخبار، معظمها مأخوذة من وكالات الأنباء العالمية مثل الوكالة الفرنسية «إيه إف بي» أو «رويترز» أو «إيه بي»، يقوم معدو البرامج بقص الصور ولصقها ثم يكتبون النص المصاحب، والموجودة مادته الأساسية مع ما تشتريه القناة التلفزيونية من الوكالات، فقط تضاف إليه البلاغيات والاستعارات والطباق والجناس العربي الذي يتناسب مع أجندة المحطة الإعلامية. إذن لماذا يتمطط المذيع وكأنه هو من صنع الخبر وصنع الكلام وربما صنع الحدث؟ يقرأ المذيع خبراً من بعقوبة في العراق، فترى أوداجه تنتفخ وتعلو نبرة صوته وترتسم ملامح (الجهاد) على طلعته البهية، وكأنه هو الذي فجر الحافلة، وكأنه (الشهيد) البار، وكأنه إلخ...إلخ.

هذا في ما يخص المذيع، أما ما يخص المحلل، أو المخلل، فتلك قصة طويلة. عندما ذهب العرب أخيراً إلى مؤتمر أنابوليس في ولاية ميرلاند الأميركية، سألت قناة «العربية» في واحدة من تقاريرها المصورة رجلاً فلسطينياً في الشارع عن رأيه في المؤتمر ونتائجه، قال بعفوية: «من ها الوكت (أي من الآن) أقول لكم إن المؤتمر فاشل.. فاشل.. فاشل». سمعت هذه العبارة التي تفوه بها شخص بسيط، وبعدها سمعت مئات التحليلات على القنوات العربية وفي الصحف، كلها تتلخص في تلك المقولة التي تفوه بها ذلك الرجل «من ها الوكت المؤتمر فاشل.. فاشل.. فاشل».

إذن، ما الجديد الذي يضيفه التوسع في الإعلام المكتوب والمرئي في العالم العربي، إذا كان رأي المثقف لا يختلف عن رأي أبسط بسطاء الشارع؟ ما نراه في إعلامنا العربي اليوم من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، هو اتساع في مساحات الجهل، وانتشار أوسع للأفكار القديمة ذاتها، مرة تأتي معلبة بغلاف إسلامي ومرة بغلاف قومي أو وطني، لكنها المقولات المعلبة ذاتها التي نفدت صلاحيتها.

السؤال الذي أتمنى أن يشاركني القارئ في الإجابة عنه هو: لماذا كل هذا التمطط في الإعلام العربي إذا كان لا يضيف شيئاً؟ لماذا لا يجرؤ العربي على الاختلاف؟ ولماذا يهاب المثقف العربي أن يقول أو يكتب شيئا لا يتفق مع ما يرغب الشارع في قراءته أو سماعه، مع أن دور المثقف الأساسي هو توعية الشارع لا مسايرته؟ كيف لكل هذه العناكب أن تعشش في رؤوس من استثمرنا في تعليمهم وأرسلناهم إلى كبريات الجامعات وكنا نطمح أن يأخذوا بيدنا. هل ليكتبوا الكلام ذاته، وليتفقوا مع رجل بسيط رأى أن مؤتمر أنابوليس فاشل من «ها الوكت»؟ شيء من الاختلاف، وكثير من الجرأة، وقليل من التمطط من فضلكم.

* كبير باحثين في المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية

بلال خبيز *

القرار الوزاري العربي بشأن لبنان أسباب للفشل وأخرى للنجاح

ثمة سببان يجعلان القرار الوزاري العربي فاعلاً وله حظوظه من النجاح: الأول، يتصل بتوقيت الاجتماع، والثاني يتصل بمحورية الدولتين الداعيتين إلى الاجتماع، لكن هذه المقدمات الإيجابية كلها لا تمنع اللبنانيين من التشاؤم لأسباب جوهرية.

لم تنزل الموافقة السورية على قرار مجلس الوزراء العرب بشأن الأزمة الرئاسية في لبنان صاعقة من سماء صافية، فكان ثمة إشارات كثيرة لبنانية وسورية خصوصاً، سبقت الاجتماع ومهّدت للنتائج التي وصل إليها، ومن نافل القول أن الرئيس نبيه بري كان قد أعلن صراحة في تعليقه السريع على دعوة أمين عام الجامعة العربية السيد عمرو موسى لبنان لحضور الاجتماع، بالقول: فليتفق العرب في ما بينهم وسيكون لبنان بألف خير. طبعاً لم يقل السيد نبيه بري قوله هذا بقصد تجاهل الأسباب الداخلية التي تحول دون التوافق بين القوى المتصارعة، بل إنه على الأرجح أراد التعبير بموقف موجز عن طبيعة التعقيد الأبرز الذي يحول دون انتخاب العماد ميشال سليمان رئيساً للجمهورية، رغم التوافق على شخصه، والمتعلق بالمطلب السوري، الذي عبر عنه بعض المقربين من سورية في أكثر من مناسبة، وكان رئيس الحكومة السابق سليم الحص قد افتتح صالون المعبرين عنه، أي هذا المطلب، في تصريح صحفي مطلع الأسبوع الماضي اعتبر فيه أن مكمن الحل في لبنان يتمثل في اتفاق سوري-سعودي.

في الأسباب التي تدفع سورية إلى الانتقال من حال التعطيل المعلن إلى حال التسهيل في موضوع الأزمة الرئاسية في لبنان، ثمة سببان لابد من إلقاء الضوء عليهما:

السّبب الأول، يتصل اتصالا حاسماً بطبيعة الدعوة إلى الاجتماع التي لحظت دوراً سورياً محوَرياً ليس في لبنان فحسب بل أيضاً في فلسطين والعراق بدرجة أقل. والثاني، يتصل بالسعي الدبلوماسي السوري الحثيث إلى فك طوق العزلة عن النظام الذي يعاني مشكلات دولية وعربية غنية عن التعريف. ولا شك أن النظام السوري ينظر إلى القمة العربية المقبلة في شهر مارس بوصفها قادرة على حل مشكلاته العربية بالجملة، فهي القمة العربية الأولى منذ العام 1964 التي تعقد في دمشق، مما يعني أن شهر مارس المقبل سيكون بالنسبة إلى النظام السوري شهر اتصالات دبلوماسية بالغة الأهمية بالنسبة للنظام، حيث يجتمع في دمشق رؤساء العرب وملوكهم في فرصة تاريخية لن تتكرر. وهذا على الأرجح ما جعل النظام السوري ملحاً في خطب ود المملكة العربية السعودية بوصف موقعها المحوري في العالم العربي غير قابل للنقاش، من جهة أولى، ولأن القمة لا يمكن أن تنعقد من جهة ثانية من دون عملية التسلم والتسليم بين الرئيس السابق للقمة، وهو خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز والرئيس المقبل الذي تنعقد القمة في ضيافته. وهذا ما يجعل الحرص السوري على استرضاء المملكة أبلغ من أن يُخفى.

أما في الأسباب التي تجعل هذا القرار الوزاري العربي فاعلاً وله حظوظه من النجاح، فثمة سببين أيضاً يجدر بنا الإشارة إليهما:

الأول، يتصل بتوقيت الاجتماع الذي لم يترك لسورية فرصة المناورة وقتل الوقت على جاري عادة النظام السوري في احتراف اللعب في الوقت الضائع، إذ إن المسافة الزمنية التي تفصلنا عن شهر مارس، تاريخ انعقاد القمة العربية في دمشق، بأتت لا تسمح بهامش للمناورة فضلا عن أن القرار نصّ صراحة على تقييد سورية بحسن السلوك والسعيّ إلى تنفيذ ما اتفق عليه في مهلة تنتهي حكماً في الأسبوع الأخير من الشهر الجاري تاريخ انعقاد الاجتماع الوزاري العربي المقبل. وثاني الأسباب الدافعة إلى التفاؤل بفاعلية هذا القرار يتصل بمحورية الدولتين الداعيتين إلى الاجتماع. فليس من عادة الدبلوماسيتين المصرية والسعودية الإقدام على خطوات غير محسوبة بدقة شديدة، بما يمثلانه من ثقل في العالم العربي لا يمكن تجاهل آثاره.

لكن هذه المقدمات الإيجابية كلها لا تمنع اللبنانيين من التشاؤم لأسباب جوهرية، وبعض هذه الأسباب يتصل مباشرة بطبيعة القوى السياسية اللبنانية المعارضة التي تجهر برغبتها في تعطيل آلة الدولة من دون لبس أو مواربة، والحق أن ترحيب الرئيس نبيه بري بالقرار مفهوم وأكثر من منطقي، لأن النجاح في تجاوز الفراغ الرئاسي يعيد للرئيس بري دوراً افتقده في ثاني أرفع منصب رسمي لبناني، لكن هذا الأمر لا ينطبق تماماً على حليفيه في المعارضة: «حزب الله» و«التيار الوطني الحر». حيث يشتبه الأول بكل قيامة للدولة اللبنانية بوصفها تقضم من حدود دولته، بينما يبدو خطاب الثاني شديد الوضوح في رغبته إدامة الفراغ الرئاسي، وهو يدعو المسيحيين اللبنانيين، وللمرة الأولى في تاريخ لبنان، إلى العزوف عن الدخول في أبنية الدولة اللبنانية إذا لم تستجب لمطالبه الخاصة. والأرجح أن النظام السوري قادر بقليل من الحنكة والدراية على إيصال الخطاب العوني إلى درجة تهدد بالانفجار الداخلي الذي قد تستغرق معالجته وقتاً طويلاً يمتد إلى ما بعد تسليم الرئيس بشار الأسد مقاليد رئاسة القمة العربيّة إلى زعيم عربي آخر.

* كاتب لبناني

علي بلوط *

«كَذبَ المنجمّون ولو صَدَقوا»

أجمع العلماء بأساليب مختلفة على القول عن سر انتشار ظاهرة الشعوذة: إن حالة اليأس السياسي والاجتماعي والتدني الاقتصادي تدفع الناس إلى التفتيش عن أي شيء يمنحهم الأمل الكاذب، ومعظم هؤلاء الناس يدركون أنهم يشترون الوهم الذي يبعث الأمل في نفوسهم ولو للحظات أو ساعات قليلة من اليوم.

هي مهنة قديمة توازي في قدمها مهنة الدعارة الجسدية، يطلقون عليها أسماء عديدة منها: قراءة المستقبل، واستلهام الشياطين والملائكة لمعرفة الغيب لشخص معين، وفي أحيان كثيرة للبلد ولشعب برمته. منهم من يستخدم «السحر الأسود» ويدعي «أخوّة» أبالسة الجحيم، ومنهم من يزعم مصادقة الملائكة الصالحين، لكن في النتيجة فإن لهذه المهنة محتوى واحداً، واسماً واحداً متعارفاً عليه هو «الشعوذة» مهما اختلفت أساليبها ومسمياتها وأنواعها.

ما دفعني إلى الكتابة عن هذا الموضوع عاملان اثنان: الأول تسلية القارئ وإراحة باله قليلا من شؤون وشجون السياسة والكوارث التي تنتظرنا على مفترق الطريق، في محاولة لزرع بسمة الأمل على الوجوه القلقة المضطربة، متمنياً أن يكون ذلك «عيدية» بدء السنة الجديدة، والعامل الثاني هو استفحال هذه الظاهرة وانتشارها في مجتمعنا العربي من المحيط إلى الخليج، وبوجه خاص المجتمع اللبناني على اختلاف طبقاته المثقفة والجاهلة على حد سواء، أو أنصاف المتعلمين أو الذين أصيبوا بعمى التعصب الديني أو السياسي أو الاثنين معاً حيث وصلت هذه الظاهرة إلى أبواب أسياد البلاد وحكامها.

في جولة قصيرة في أرجاء المكتبات البيروتية نجد أن رفوفاً طويلة وعريضة صفت عليها ما أنتجته عبقريات هذا النوع من الكتبة، تتصدّر صورهم الهوليودية الأنيقة الملونة أغلفة هذه الكتب مع عناوين تثير شهية كل من يريد أن يكتشف طالعه في السنة الجديدة: هل سيصبح غنياً؟ هل سيلتقي نصفه الآخر، هل سينال المراد في مركز سياسي مرموق، هل ستتمّ صفقة أو صفقات كان يسعى إليها في السنة المنصرمة تزيد من رصيده المصرفي عدة عشرات من ملايين الدولارات؟ وهل سيشفى من مرض عضال؟ وأخيراً وليس آخراً هل ستتعرض البلاد إلى هزات أرضية عندما يلتقي الكوكب «جوبيتر» -مثلا- مع أنيسه وجاره كوكب «الزهرة» ثم يشكلان معاً، في لحظة نادرة، «نبوءة» تمنح السعادة أو البؤس والتعاسة لمن ألقاه حظه العاثر أو التعيس في أتون مصادفة تاريخية عندما وُلِد يوم هذا اللقاء التاريخي المشهود؟!

ما يثير السخرية إلى درجة الغضب الشديد ويؤدي إلى ارتفاع منسوب مرض السكري وضغط الدم في الشرايين التي غزاها مرض التصلب واليباس، أن هذه الكتب القيمة تشكّل، حسب إحصاءات شبه رسمية نسبة 75 في المئة مما أنتجته مطابع عاصمة النور والثقافة بيروت خلال السنة الماضية، وأن نسبة مبيعاتها فاقت حدود مبيعات الكتب الأدبية والسياسية والتاريخية والعلمية، وأن بعض عناوين هذه الكتب قد نفد وفقد من المكتبات بعد ساعات أو أيام من خروجها من المطبعة، بَينما أقرانها من الكتب الأخرى، ذات القيمة العقلية، مازالت «مكدسة» فوق بعضها تذرف دموع الخيبة وهي تحث القارئ لا لشرائها بل لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على مضمونها... لعل وعسى.

عشية ميلاد السنة الجديدة ظهر على شاشة إحدى قنوات التلفزة اللبنانية طبيب نفسي محترم أطلق صرخة التحذير من مساوئ هذه الظاهرة المتفشية في مجتمعنا عندما أشار إلى وجود نسبة ملحوظة في انتشار هذا النوع من الكتب، وأعطى أرقاماً إحصائية تثير الذهول والدهشة. قال الدكتور منصور، وأعتقد أنه اختصاصي في علم النفس، أن الإقبال على شراء وقراءة هذه الكتب زاد في العام 2007، عما سبقه من أعوام، بنسبة تتراوح بين 20 و25 في المئة موزعة على مختلف طبقات المجتمع. وقال أيضاً إن هذه الزيادة طالت فئات الموسورين والموسرات من رجال أعمال وسياسيين معروفين حيث وصلت إلى نسبة 12 في المئة من هذه الطبقة الاجتماعية، بينما تعدت 30 في المئة من مجموع الشعب اللبناني من الطبقة الوسطى والفقراء.

من دون ذكر الأسماء، أعرف سيدة مجتمع وصاحبة صالون يؤمه السياسيون والصحافيون ورجال المال والأعمال «وظفت» لديها واحداً من المشهورين في قراءة «البخت». تتصل به هاتفياً صباح أو ظهر كل يوم، أو عندما تستيقظ من النوم، ليضع لها جدول أعمالها اليومي استناداً إلى قراءة أبراجها. هذه السيدة مدمنة على طاعة أوامر «طبيبها الروحي». فإذا قال لها لا تخرجي من البيت اليوم، أو لا تستقبلي فلانة أو فلانة، أو لا تأكلي هذا النوع من الطعام، نفذت أوامره بكل دقة.

من دون ذكر الأسماء، قال لي واحد من المفكرين اللبنانيين المعروفين في الشرق وفي الغرب معاً إنه قضى سنتين في تأليف كتاب يحتوي على وثائق وتحليلات من شأنها أن تنير طريق العقل نحو مستقبل أفضل. الناشر، مدفوعاً برغبة الربح، استغل اسم الكاتب ومكانته فدعا إلى حفلة «كوكتيل» يوقع خلالها الكاتب كلمة إهداء شخصية، كما هي العادة. وجاءت النتيجة أنه «باع» خلال الحفلة نحو 400 نسخة. ثم مرت سنة 2007، فاتصل الكاتب بدار النشر وهو يمني النفس بالحصول على «شيك» معقول ثمن شراء كتابه. وجاءه الجواب الصدمة: طيلة السنة الماضية لم تسجل حالة بيع نسخة واحدة بالرغم من توزيعها على مختلف المكتبات. قرر هذا الكاتب والباحث الصديق «الاستقالة» من مهنة الفكر، وهو يفتش اليوم عن عمل لا علاقة له بالحبر والورق والكتابة.

في المقابل، ومن دون ذكر الأسماء أيضاً، استطاعت واحدة من اللواتي تطمث كل سنة كتاباً يتحدث عن «البخت» وأخواته وأعمامه، من تشييد بناية في منطقة بيروتية راقية مؤلفة من 12 طابقاً فخماً، بالإضافة إلى امتلاك سيارة يابانية غالية السعر، مع أخرى صغيرة يستخدمها الخدم والحشم، بالإضافة إلى مجموعة منتقاة من أغلى أنواع الفرو... كل ذلك هبط عليها من دخل مبيعات كتبها لبنانياً وعربياً وفي الأسواق العالمية التي ينتشر فيها مغتربونا وكل من يتحدث لغة الضاد. و«كاتبة البخت» هذه ومثيلاتها أصبحن نجمات مجتمع محملات بما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر والأحجار الكريمة النادرة، يتزاحم الكبار من أسياد المجتمع اللبناني والعربي من سياسيين واقتصاديين وأصحاب ثروات ضخمة على دعوتها إلى حفلاتهم.

ولو بقيت هذه الظاهرة محصورة في الكتابة والكتب لكانت المشكلة سهلة، لكنها تعدت إلى قنوات التلفزة المحلية والفضائية حيث تتزاحم هذه القنوات على التعاقد بمئات ألوف الدولارات وربما يصل المبلغ إلى حد المليون سنوياً، لتقديم برنامج أسبوعي مباشر ترد فيه قارئة البخت والفنجان على أسئلة ومشاكل المشاهدين والمشاهدات. نموذج صغير من فحوى هذه البرامج: تسأل قارئة البخت عن اسم محدثتها فترد السيدة أو الفتاة المصون: اسمي فدوى. تسارع «المنجمة» إلى الرد السريع: أعرف أنك ستسألينني عما إذا كنت ستتزوجين قريباً. الجواب لا... لن تتزوجي إلا إذا استبدلت اسمك باسم يحتوي على خمسة حروف.

من دون ذكر الأسماء أيضاً، التقيت في ناد مشهور للقمار في العاصمة البريطانية لندن بواحد من أشهر قارئي «البخت» في العالم العربي، كان يمارس بشغف كامل هوايته في لعب «الروليت» إلى درجة سيطرت على كل حواسه، فلم يعد يرى حوله وحواليه سوى كرة الحظ التي تدور لتجلب له وللآخرين الخسارة المحتومة. بعد ساعة ترك صاحبنا الطاولة بعد أن أخذت كل ما في جيوبه. كان منظره يبعث على الشفقة. فقلت له مازحاً: إذا كنت تقرأ بخت الآخرين فلماذا لم تقرأ بختك وتعرف مسبقاً في أي رقم ستقع الكرة. يبدو أن مزاحي كان ثقيل الظل بدليل أنه رمقني بنظرة أشبه برصاصة موجهة إلى القلب مباشرة واختفى بلمحة نظر، ومازال مختفياً.

هذه الظاهرة لم تبق في مكانها بين صفوف العامة من أغنياء وفقراء على حد سواء، بل تعدتها إلى الخاصة وعلى مستوى الحكام وأنصاف الحكام، ومن دون ذكر الأسماء أيضاً، أعرف حاكماً من حكام شرقنا كان يؤمن إلى درجة العمى بكل ما تقول له قارئة بخت بدوية، تعيش في وسط الصحراء، لا تعرف الكتابة ولا القراءة. زارها ذات يوم فقالت له: أنت ستقتل. لكن خصومك لن يتمكنوا من قتلك طالما كان إلى جانبك أصغر أبنائك، فهو «حجابك» الواقي من القتل. منذ تلك اللحظة لم يفارق الأب ابنه الأصغر وكان يحضر معه الاجتماعات واللقاءات ذات المستوى العالي جداً.

أيضاً ومن دون ذكر الأسماء، أعرف حاكماً شرقي الهوية والهوى مولعاً إلى درجة الإيمان العميق بـ«التبصير» وبعلم السحر الأسود، وكان يمارس طقوسه مساء كل يوم خميس، وقد أمر سفراءه في الخارج، بالتفتيش الدقيق عن كل من يجيد هذا النوع من «الفن الإيماني» وإرسالهم إلى عاصمته على أول طائرة، وصودف أن أحد الزملاء في مهنة الحبر والورق عرف سر الدخول إلى قلب وعقل الحاكم، وكان هو الآخر من العارفين بأسرار مهنة قراءة الغيب فتمكن من أن يصبح «الممول» الأول لهذا الحاكم حيث جمع ثروة لا تأكلها النيران، وهو اليوم، يعيش متنقلا بين عدة قصور وفيللات اشتراها في عدد من العواصم الأوروبية.

سؤال يتيم حملته ووضعته أمام عدد من علماء النفس اللبنانيين: ما سرّ انتشار هذه الظاهرة؟! أجمع هؤلاء العلماء بأساليب مختلفة على القول: إن حالة اليأس السياسي والاجتماعي والتدني الاقتصادي تدفع الناس إلى التفتيش عن أي شيء يمنحهم الأمل الكاذب، ومعظم هؤلاء الناس يدركون أنهم يشترون الوهم الذي يبعث الأمل في نفوسهم ولو للحظات أو ساعات قليلة من اليوم... إلى أن يصلوا إلى حالة الإدمان.

* كاتب لبناني